



تنطوي رواية الكاتبة اللبنانية رلى الجردي «في علبه الضوء» الصادرة عن دار الآداب على موضوعات تاريخية وسياسية واجتماعية، ضمن حكاية إنسانية عن ثلاث سيدات لبنانيات، قصصهن العاطفية، وعلاقتهن مع الإيمان والتغيير.

تصنع الكاتبة رواية غنية، تريد أن تقول فيها الكثير، وربما كلّ ما تعرف، عن الطائفة الدرزية في لبنان. تستخدم خطأً سردياً رئيسياً واحداً، وهو حكاية نور التي تعني ضمناً حكاية الكاميرا. وما هي الكاميرا في النهاية سوى عينها التي ترصد حيوات الآخرين وتغير أحوالهم؟ يلتئم السرد حول شخصية نور، تظهر شخصيات وتختفي أخرى بما يخدم إيضاح رؤيتها أو تطور بنائها. إلى جانب نور، تبرز شخصيتان نسائيتان تنتحيان عن الحياة المادية وتلجآن إلى عالم روحي. فيما يتصدّع عالم مهيبه الروحي، تبقى سارة واحدة من الشخصيات الراسخة، والتي استطاعت الجردي أن تجعل منها شخصية مرجعية، راحت تلجأ إليها الكاتبة لتجثّب عثرات بناء نص بخط سردي واحد. مع ما تمثله سارة من حضور مختلف لصورة رجل الدين. إذ تبني الكاتبة حكايات عديدة على ثنائيات متقابلة، مثل قرية دير القمر المسيحية مقابل دار شمس الدرزية في الحرب الأهلية، والشيخ فوزي المتعصب الطائفي مقابل سارة المتسامحة التنويرية. كذلك نور تكون في مواجهة دائمة مع أخيها، قبل أن يلمح القارئ نور شخصية فاعلة تغزل جلّ الأضداد في مسار من التغريب. إذ إنّها تغادر إلى أمريكا، وتطلّ على ماضيها وماضي فئتها الدينية، إطلالة الباحث الشغوف المنتمي. تدفع الكاتبة عبر تساؤلات شتى بالقارئ إلى المساحة التي تريدها، ليكون النص برمتيه، سؤالاً عن الانتماءات الضيقة والخيار الفردي مقابل التوجه الجمعي، نصّاً عن الرغبات وعبث تحطيمها أو هوس التسليم بها، إنّ الراوي في علبه الضوء هو صوت الشك المغرّد خارج الصمت واليقين.

تؤسس الكاتبة لحكاية بطلتها نور عبر حكايا تنتمي للمكان الذي نبتت عنه، منها سيرة عمته سارة التي اعتكفت الناس حتى تغلّبت على طبيعتها كأثى، واعتنقت المسلك العرفاني. وسيرة مهيبه التي باعدت الحرب الأهلية اللبنانية المتمثلة بقريتي دير القمر ودار شمس، بينها وبين يسوع. إثر غرق خطيبها، راحت تصبو بأن تنتمي إلى أهل العرفان لتبقى إلى جانب سارة لكن ما أن ينقطع الحيز عنها حتى تنهار فناعاتها لانعدام فرص الإنجاب، ولتتوفى وهي تهجس باسم المسيح. تمثل كلّ من سارة ومهيبه صراعاً مريباً مع الرغبات والطبيعة، إذ تنجح سارة في عبور محتتها، ومنح مصيرها الخالص للإيمان. فإنّ خيبة انتظار إشارة إيمانية ما، تهدر عمر مهيبه بامتناعها عن الزواج والإنجاب.





نرى في «في علة الضوء» كيف تهدر القناعات حيوات الناس، كيف تستعبد الرغبة بعضهم، وكيف يتحرر آخرون بالرغبة نفسها. وبين هذين المثالين تحضر نور، لتمثل الصراعات التي تخوضها، منذ اكتشافها سر الجسد والغريزة برفقة أكرم، إلى زواجها من الشاب العراقي في أمريكا، مثلاً لتيار حر. تشيده الكاتبة في وجه الجميع، إما مواجهةً أو انسحاباً أو احتواءً. فيما نسجت علاقة الأبناء العنيفة، استكانة الأب وخوفه، وتنكره لماضي كان يلمح التغيير فيه قريباً. ومتى ما جاءت ابنته بذلك التغيير، راح يستنكره خشية من مجتمعه. في واحدة من أكثر لحظات الرواية حرّاً تجرح سارة حلولاً، تتركها الكاتبة معلقة، لتخلص إلى نهاية بارعة وعبثية، تضيء على مشهد التعصب الفاتم والموحش سمة ساخرة. إذ فيما يتوقع القارئ بين لحظة وأخرى رصاصة تذهب بنور وزوجها بعد مغامرتهما بزيارة بيروت، يجيء طفل يلتقط صورة لهما، ومن ثم يهرب بالكاميرا من أمامهما، لينسل سيل التوتر من المشهد ويتوارى خلف الضحكات الغائمة.

تلقي الجردي على عاتق السرد، من غير أن ترهقه، تحليلاً تاريخياً وسياسياً لحال الدروز بين فلسطين ولبنان، عن طريق استقصاء مخطوط مستشرق أمريكي في نيويورك، والبحث عن حقيقة دوره في آونة نشوء إسرائيل، الكيان العنصري. تقارب الطائفية في لبنان أيضاً في مسلك العنصرية نفسه. تتيح الكاتبة للرواية أن تكون ضمير الجماعة، من غير إضفاء أبولوجيا محدودة. وفي هذا الحيز بالضبط، يكمن تميزها. تأخذ علاقة نور مع الكاميرا حيزاً من الرواية، إلى جانب اهتمام الكاتبة باستعراض فلسفتها حيال الكاميرا، علة الضوء، لتبدو قصة نجاحها، بدءاً من استخفاف الآخرين بحلمها، وبالصناعة التي تريد احترافها، مخرجة سينمائية، انتهاءً بالفيلمين اللذين صنعتهما، وبموضوعهما المرتبط بالمكان وأهله، مروراً بالوقت العصيب الذي صنعت به الفيلمين.

تبدو قصة نور مع الكاميرا قصة قادمة من عالم يشبه الحلم، حدّاً يجعل من عالم الواقع أشبه بشريط سينما شفيف؛ عن فتاة خرجت عن المألوف في قرية محافظة من لبنان، قرية تشهد صراعات داخلية كثيرة، ناسها عنيفون ومتعدّدو التوجهات. تخرج البنت من القرية المحافظة، تمضي حاملة معها التذكار والآمال، لتبحث في مكان آخر من العالم في ماضي جماعتها، تتزوج لتعود وتواجه عدسة كاميرتها، التي ما تلبث أن تُسرق. كما لو أنّ كلّ خروج للصوت المغرّد عن السرب، كان ابتعاداً من أجل عودة نهائية إليه.



رلى الجردي... صوت الشكّ المغرّد

الكاتب: سومر شحادة